

التحفة

في

مذاهب السلف

للإمام محمد بن علي بن نجاد الشوكاني
صاحب كتاب نيل الأوطار

تحقيق

سيد عاصم علي

شهدت بإذن الله أن نعمتاً
رسول الذي فوق السموات من عمل
وأن الذي عسى اليه نزلت
رسول أنى من عند ذي العرش مرسل

دار الطباعة للنوائف

للنشر والتحقيق والنوزيع

ت: ٣٣١٥٨٧ - ص: ٠ ب: ٤٧٨

كتاب قد حوكم كرراً بعين الحسن ملحوظة
لهذا قلت تنبيهاً
حقوق الطبع محفوظة
للناشر

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

دار الصحابة للتراث بطنطا

للنشر والتحقيق والتوزيع

شارع المكيرية - امام محطة بنزين التعاون

ت : ٣٣١٥٨٧ - ص . ب : ٤٧٧

هذه الرسالة

هذه الرسالة المباركة ، هي إحدى فتاوى الشيخ محمد بن علي الشوكاني ، رداً على سؤال ، ورد عليه من بلد الله الحرام ، يسأل صاحبه عن آيات وأحاديث الاستواء والصفات ، ومنهج السلف الصالح في فهم هذه الآيات والأحاديث ، هل تمرر وتجري على الظاهر ، أم تأول عن هذا الظاهر .

فأجاب — رحمه الله — جواباً شافياً مقنعاً ، بين فيه طوائف الإسلام ، وموقف كل طائفة من هذه المسألة .

ولما كانت هذه الرسالة — على صغرها — مفيدة وجامعة ، رأينا أن نفردها بالنشر ، رجاء أن ينتفع بها أخوة لنا طالما التبس عليهم هذا الأمر فالتمسوا نجلاءه وفهمه على الوجه الصحيح .

والحمد لله أولاً وآخراً ، والصلاة والسلام
على محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الناشر

تقديم

الحمد لله الذي أذل الشرك والمشركين ، وأعز لواء التوحيد والموحدين ، وجعل الدائرة على أهل الأهواء المضلين ، فخاب سعيهم في العالمين .

ثم الصلاة دائماً أبداً على النبي الأمين ، إمام الموحدين الميامين ، وصاحب لواء الحمد يوم الدين ، الذي قمع دعاوى الشرك والمشركين ، وسل سيف الحق على المارقين ، فبدد شملهم أجمعين .

وعلى آله وصحبه ، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد .

فإن الله عز وجل ، لما أرسل نبينا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، أرسله على فترة من الرسل ، بعد أن كادت معالم التوحيد أن تندثر ، وكان مَنْ سَلِمَ مِنَ الشَّرْكِ والكفر ، متحيراً لا يعرف أين الطريق .

فأرسله ربه ليخرج الناس من ظلمة الجهل إلى نضاعة الحق ، وجاء الإسلام إلى الدنيا ليعم به الخير ، وينتشر الصلاح .

ومن ثم فقد واجه الإسلام جاهليات عدة ، كل منها أخذ على عاتقه معاداة الإسلام والكيد له ، ، ، ولكن الله عز وجل غَلَبَ دينه ، وأعزه بنصره المؤزر .

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [٢١ المجادلة]

وقد واجه الإسلام هذه الجاهليات مواجهة صُلْبَةً^(١) ، وأعلن في وجهها العداء ، وناقش معتقداتها ، وبين زيفها وضلالها .

(١) جاء في اللسان [٢٤٧٦] :

صَلْبُ الشَّيْءِ صَلَابَةٌ فَهُوَ صَلِيبٌ وَصَلْبٌ أَي شَدِيدٌ

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ﴾ [٢٢ الأنبياء]

وكان من هذه الجاهليات : شرك العرب ، وهو شرك ساذج مفضوح ، يدل على بدائية التفكير ، وسطحية المنطق ، كهذا الذي يعبر عنه بيت ” النابغة الذبياني “ في معلقته الدالية

فَلَا لَعَمْرُ الَّذِي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ وَمَا هُرَيْقٌ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدٍ^(٢)
فقد بدأ بالتوحيد في صدر البيت ، ثم انتكس إلى الشرك في عجزه ، يقول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [١٠٦ يوسف]

وكان من هذه الجاهليات أيضاً : جاهلية المثوية عند الفرس ، وجاهلية التثليث عند النصارى ، وجاهليات شتى في مشارق الأرض ومغاربها ، فوقف لها الإسلام موقفاً صارماً ، فما استطاعت إحداهن الصمود أمام نصاعته ومصداقيته .

فلما عَزَّ على الهر أن يصول أمام الأسد ، ولما عَزَّ على البغاث أن يستنسر ، تحول إلى حية رقشاء ، وأفعى رقطاء ، تدس السم في الخفاء ، وفي العلن إن أمكن لها الإعلان ، فكلما خلا لها الجو لدغت ، وكلما حوصرت دست سمها في المشارب والمناهل ، فتفسد على الناس توحيدهم ، وتكدر عليهم صفاء دينهم

” خَلَا لَكَ الْجَوُّ فَيُضِي وَاصْفِرِي “

ولما كانت الأفعى مدحورة مقهورة في العهد النبوي ، فقد لزمت شقها ، واستكانت في جحرها ، وكلما أرادت أن تطل برأسها ألقمت حجراً يسكنها مكنها ، ويلزمها محمدتها .

(٢) ديوانه ص ٢٥ ،،، هريق = أريق ، الأنصاب = حجارة كانوا يعبدونها ، جسد = الدم اللاصق به .

ثم أطلت اللعينة برأسها عند موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فوقف لها الصديق وقفة الصديق ، صاحب الإيمان البصير الرشيد ، فلما وقف الصحابة من موته صلى الله عليه وآله وسلم موقف المكذب الذي يكاد يصدق ، أو المصدق الذي كاد يكذب ، قالها أبو بكر مدوية ، ليحسم بها الأمر :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾^(١) من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد رباً محمد فإنه حي لا يموت .

فألقت الأفعى أول حجر فاندحرت ، ثم توالى الفصول يأخذ بعضها بذيل أول بعض ، ونشط الصديق لمحاربة من ارتد وتملكته الأفعى ، حتى أقام عودها ، ورتق خرقها ، ورمَّ فسادها ...

ثم جاء من بعده الفاروق ، فوقف صلباً لا يلين ، وقد أقام صرح العدل ما شاء الله له أن يقيم ، فكان شوكة في حلق الأفعى ، فلما غصت به ، وأعيها أمره ، غالته بخنجرها المسموم ، وعقرته بكلبها العقور ، اللئيم الرجيم ' أبو لؤلؤة المجوسي ' وقيل « النصراني » ثم هل استراحت فما استراحت والله وإنما عادت تكيل الكيد لهذا الدين وأهله ، فكان ما كان من فتن في عهد الخليفة المظلوم " عثمان بن عفان " ، حتى راح بسمها — رضى الله عنه — ، ومن بعده الإمام علي بن أبي طالب ، ومنذ ذلك الحين ، اتسع الخرق على الراقع ، فقد لبست الأفعى غير لبوسها ، وتزيت بزى جديد ، هو زى الكيد في أصول الدين ومعتقداته ، ووسوست لفرق من المسلمين فخرجوا عن الإسلام ومنهجه الصحيح .

وهنا وضعت الأفعى السيف ، وأشرعت اللسان ، لسان بقايا مجوس وفرس و نصارى ، تكيد بهم للأمة في عقيدتها ، وأصول دينها ، وظهر الفساد والانحراف في فهم الدين ، فهم قرآنه وفهم أصوله ، عن غفلة مرة ، وعن تغافل مرات ، بطوية ساذجة مرة ، ونوايا خبيثة مرات ومرات .

(١) ٣٠ الزمر .

وظهر مما ظهر ، الاعوجاج في فهم آيات وأحاديث الأسماء والصفات ، فقد سلكوا فيها مسلكاً منحرفاً ، خرج على ما شرعه لهذه الأمة ، ربُّها ونبيُّها ،، فكانوا بين معطل لصفات ثابتة بالكتاب والسنة ، ثبوتاً أوضح من شمس النهار ، وآخر يغالي حتى يصل إلى بشاعة التجسيم أو يصل إلى حد الجبر المحض والقسر الخالص ، فأولوا الآيات البينات ، وتمحلوا في الحجج القاطعات ، وآخرين نفوا الصفات نفياً عاماً ،،،

وكلهم صاحب هوى ، قد استمالته الأفعى ، فأصبح لساناً لها ، وبوقاً تنفث من خلاله سمها ، فحذار .. حذار ، أن تقع أيها المسلم في الحبائل ، أو تقع في الشرك المنصوبة .

وبعد

فقد اطلعت على هذه الرسالة ، للإمام الرباني ، والقطب اليماني الشيخ محمد بن علي الشوكاني ، فراقني أسلوبها ، وشاقني منهجها فعزمت على أخي الفاضل أبي حذيفة ابراهيم بن محمد ، أن يقوم على طبعها مفردة ، مع بعض التعليقات والتوضيحات ، فلبى جزاه الله خيراً ، وأثابه نعم الثواب ، لما له من صنائع في نشر الكتاب الإسلامي . وفي الختام أدعوا الله مخلصاً ، أن يتقبل هذا العمل ، قبولاً حسناً ، ويضاعفه لنا ، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم ، ويثبنا عليه خير الثواب ، ويتجاوز عن هناته وسقطاته .

﴿ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

[٨٨ هود]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتب

أبو عبد الرحمن

سيد عاصم علي

ترجمة المؤلف

هو الإمام العالم الرباني ، والسهيل الطالع من القطر اليماني ، إمام الأئمة ومفتي الأمة ، بحر العلوم ، وشمس الفهوم ، سند المجتهدين الحفاظ ، فارس المعاني والألفاظ ، فريد العصر ، ونادرة الدهر ، شيخ الإسلام ، وقدوة الأنام ، علامة الزمان ، ترجمان الحديث والقرآن ، علم الزهاد ، وأوحد العباد ، قانع المبتدعين ، وآخر المجتهدين ، رأس الموحدين ، وتاج المتبعين ، صاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها ، قاضي قضاة أهل السنة والجماعة ، شيخ الرواية والسماعة الخ

هذه بعض النعوت والأوصاف ، التي خلعتها على الإمام الشوكاني تلميذه حسين السبعي الأ نصاري اليماني ، وهو يستحقها وزيادة ، فقد كان كما وصفه تلميذه ، بل وأكثر .

فهو الإمام محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن ،، ينتهي نسبه إلى خَيْشَنَةَ [بفتح الخاء المعجمة وتسكين المثناة التحتية وفتح المعجمة الثالثة والنون] ابن زَبَاد [بتشديد الموحدة وفتحها] ، وقد لقب بالشُّوكَا نِي [بتشديد المعجمة وفتحها ، وتسكين الواو وفتح الكاف] نسبة إلى شوكان وهي قرية من قرى السُّحَامِيَّة [بضم المهملة الأولى وفتح الثانية] إحدى قرى حَوْلَانَ [بفتح المعجمة وسكون الواو] وبينها وبين صنعاء مسافة يوم ، وكان موطنه رحمه الله " عدني شوكان " وهي إحدى محلات شوكان ، وقد تخرج منها كثير من العلماء .

مولده .:

ولد - رحمه الله - في وسط نهار الإثنين ، الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١١٧٣ هـ .

وكان والده من كبار علماء صنعاء وقضاتها ، وقد درس أول ما درس على يدي هذا الوالد الفاضل ، فقرأ عليه شرح الأزهار ، وشرح الناظري المختصر العصيفري .

وقد حفظ رحمه الله القرآن ، وجوده ، وحفظ المتون في سائر الفنون ، وحوى الشروح والحواشي ، وتخرج على أجلاء علماء عصره ، وقلما وجد فن من فنون العربية والإسلام ، إلا وحاز فيه قصب السبق ، حتى ذاع أمره ، وانتشر ذكره ، ووردت عليه الفتاوى من كل صوب وحدث ، وقد جُمعت فتاواه في ثلاث مجلدات ، ووسمت بـ ” الفتح الرباني في فتاوى الشوكاني “ وقد عدوه مجدد القرن الثالث عشر الهجري ، كما قال محمد صديق خان في كتابه ” دليل الطالب إلى أرجح المطالب “ .
وكان يرى نبذ التقليد المتجمد ، والأخذ بالاجتهاد والدليل ، ونبذ كل ما لا دليل عليه ، وقد وضع في ذلك رسالته القيمة :

” القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد “

وقد تولى القضاء في صنعاء ، وجلس به مدة طويلة .
وفاته .:

وكانت وفاته — رحمه الله — في شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٥٠ هـ ودفن بصنعاء ، بعد حياة علمية مباركة ، وقد تخطى السبعين بست سنوات .
مؤلفاته .:

- ١ — إتحاف المهرة في الكلام على حديث « لا عدوى ولا طيرة » .
- ٢ — أدب الطلب ومنتهى الأرب .
- ٣ — إرشاد الأعيان إلى تصحيح ما في عقود الجمان .
- ٤ — إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات .
- ٥ — إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي .
- ٦ — إرشاد المستفيد إلى دفع كلام ابن دقيق العيد في الإطلاق والتقييد .
- ٧ — إرشاد المقال على إزالة حل الإشكال .
- ٨ — إشراق النيرين في بيان حكم إذا تخلف عن الوعد أحد الخصمين .
- ٩ — إطلاع أرباب الكمال على ما في رسالة الجلال ” الهلال من الاختلال “ .

- ١٠- أمنية المشوق إلى معرفة حكم المنطق .
- ١١- البحث المسفر عن تحريم كل مسكر .
- ١٢- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع .
- ١٣- بغية المستفيد في الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد .
- ١٤- تحرير الدلائل على مقدار ما يجوز بين الإمام والمؤتم من الارتفاع والانخفاض والبعث والحائل .
- ١٥- التحف في مذاهب السلف . [رسالتنا هذه]
- ١٦- تحفة الذاكرين بشرح عدة الحصن الحصين .
- ١٧- التشكيك على التفكيك .
- ١٨- تشنيف السمع بإبطال أدلة الجمع [جمع الصلاتين في الحضر] .
- ١٩- تنبيه الأمثال على جواز الاستعانة من خالص المال .
- ٢٠- تنبيه ذوي الحجاء على حكم بيع الرجا .
- ٢١- التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح .
- ٢٢- جواب السائل عن قول الله تعالى ” والقمر قدرناه منازل “ .
- ٢٣- جيد النقد في عبارة الكشاف والسعد .
- ٢٤- حل الإشكال في إجبار اليهود على التقاط الأذبال .
- ٢٥- الدور البهية في المسائل الفقهية [مشروح بالروضة الندية]
- ٢٦- در السحاب في مناقب أهل البيت والأصحاب .
- ٢٧- الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد .
- ٢٨- رسالة البحث الملم ، المتعلق بقوله تعالى ” لا يجب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم “ .
- ٢٩- رسالة البغية في مسائل الرؤية .
- ٣٠- رسالة الدواء العاجل لدفع العدو الصائل .
- ٣١- رسالة على حديث ” الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه “ .
- ٣٢- رسالة في إبطال دعوى الإجماع على تحريم السماع .
- ٣٣- رسالة في اختلاف العلماء في تقدير مدة النفاس .

- ٣٤- رسالة في أن الطلاق لا يتبع الطلاق .
- ٣٥- رسالة في الحد الذي يجب معه قصر الصلاة في السفر .
- ٣٦- رسالة في حكم رضاع الكبير .
- ٣٧- رسالة في حكم التسعير .
- ٣٨- رسالة في حكم الطلاق البدعي .
- ٣٩- رسالة في الرد على القائل بوجوب التحية .
- ٤٠- رسالة في رفع المظالم والمآثم .
- ٤١- رسالة في قول المحدثين " رجال إسناده ثقات " .
- ٤٢- رسالة في مسائل العول .
- ٤٣- رسالة في وجوب توحيد الله عز وجل .
- ٤٤- رسالة المقالة الفاخرة في اتفاق الشرائع على إثبات الدار الآخرة .
- ٤٥- الرسالة المكملة في أدلة البسمة .
- ٤٦- رفع الجناح عن نافي المباح .
- ٤٧- رفع الريبة عما يجوز وما لا يجوز من الغيبة .
- ٤٨- الروض الواسع في الدليل المنيع على عدم انحصار علم البديع .
- ٤٩- زهر النسرين في حديث المعمرين .
- ٥٠- السيل الجرار على حدائق الأزهار .
- ٥١- شرح الصدور في تحريم رفع القبور .
- ٥٢- شفاء العلل في حكم الزيادة في الثمن لمجرد الأجل .
- ٥٣- الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقال أهل الإلحاد .
- ٥٤- الصوارم الهندية المسلوقة على الرياض الندية .
- ٥٥- الطود المنيف في الانتصاف للسعد من الشريف .
- ٥٦- طيب النشر في المسائل العشر .
- ٥٧- عقود الجمال في بيان حدود البلدان .
- ٥٨- عقود الزبرجد .
- ٥٩- فتح الخلاف في جواب مسائل عبد الرزاق .
- ٦٠- الفتح الرباني في فتاوى الشوكاني .

- ٦١- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة .
٦٢- قطر الولي في معرفة الولي .
٦٣- القول الصادق في حكم الإمام الفاسق .
٦٤- القول المحرر في حكم لبس المعصفر وسائر أنواع الأحمر .
٦٥- القول المفيد في أدلة الإجتهد والتقليد .
٦٦- القول المقبول في رد خبر المجهول من غير صحابة الرسول .
٦٧- كشف الأستار عن حكم الشفعة بالجوار .
٦٨- منحة المنان في أجره القاضي والسجان .
٦٩- نثر الجواهر في شرح حديث أبي ذر .
٧٠- نزهة الأحداق في علم الاشتقاق .
٧١- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار .
٧٢- وبل الغمامة في قول الله تعالى ” وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا
إلى يوم القيامة “
٧٣- الوشي المرقوم في تحريم التحلي بالذهب للرجال على العموم .

رسالة التحف في مذاهب السلف

((لشيخ الإسلام القاضي العلامة محمد بن علي الشوكاني رحمه الله تعالى))

(بسم الله الرحمن الرحيم) : الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الأنام وآله الكرام ، ورضي الله عن صحبه الأعلام (وبعد) : فإنه وصل سؤال من بعض الأعلام الساكنين ببلد الله الحرام ، وهذا لفظه .:

سؤال — (بسم الله الرحمن الرحيم) : الحمد لله رب العالمين — ما يقول فقهاء الدين ، وعلماء المحدثين ، وجماعة الموحدين ، في آيات الصفات وأخبارها اللاتي نطق بها الكتاب العظيم ، وأفصحت عنها سنة الهادي إلى صراط مستقيم ، هل إقرارها وإمرارها وإجراؤها على الظاهر بغير تكييف ولا تمثيل ، ولا تأويل ولا تعطيل ، عقيدة الموحدين ، وتصديق بالكتاب المبين ، واتباع بالسلف الصالحين ، أو هذا مذهب المجسمين ؟ وما حكم من أول الصفات ونفى ما وصف الله به نفسه ووصفه به نبيه وتأيد بالنصوص، واتفق عليه الخصوص ، من أن الله سبحانه في سمائه مستو على عرشه بائن من خلقه ، وعلمه في كل مكان ، والدليل آيات الاستواء والصعود والرفع . وقوله تعالى ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾^(١) ومن السنة حديث الجارية والنزول وعمران بن حصين . وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء »^(٢) وغير ذلك من الآيات المتواترة ، والأحاديث المتكاثرة ، وأول الآيات وجعل الاستواء استيلاء وأول النزول بالرحمة ، وهكذا جعل التأويل عليه مطردة في سائر نصوص الصفات . وعاش في ظلام العقل في الجهل والشبهات . وإذا قيل له أين الله ؟ أجاب بأنه لا يقال أين الله . الله لم يكن له مكان — كما هو جواب فريقى

(١) سورة الملك ١٦

(٢) أخرجه البخاري (٨/٤٣٥١/الفتح) كتاب المغازي باب بعث علي وخالد إلى اليمن ومسلم (٧٤٢/٢) ط عبد الباقي ، كتاب الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاتهم وأحمد في المسند (٥،٤/٣) .

المضلين . فهل هذا جواب الجهميين^(٣) والمريسيين^(٤) وأضلاء المتكلمين . أم اختيار علماء السنيين ؟ أفيدونا بجواب رجاء الثواب ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾^(٥) فإن هذا المقام طال فيه النزاع ، وحارت فيه الأفهام . وزلت الأقدام ، وكل يدعى الصواب . بزخرف الجواب . فأبينوا المدعى بالدليل . وبينوا طريق الحق بالتفصيل والتطويل ضاعف الله لكم الأجور . ووقاكم الشرور . والسلام عليكم ورحمة الله

جوابه : (وأقول) أعلم أن الكلام في الآيات والأحاديث الواردة في الصفات ، قد طالت ذبوله ، وتشعبت أطرافه ، وتناسبت فيه المذاهب ، وتفاوتت فيه الطرائق ، وتخالفت فيه النحل^(٦) وسبب هذا عدم وقوف المنتسبين إلى العلم حيث أوقفهم الله ،

(٣) الجهمية تطلق بمعنى عام ويقصد بها نفاة الصفات عامة ، وتطلق بمعنى خاص ويقصد بها أتباع أبي محرز جهم بن صفوان السمرقندي ، مولى بني راسب ، وهو من أهل خراسان ، وقد تتلمذ على الجعد ابن درهم ، كما اتصل بمقاتل بن سليمان من المرجة ، وكان الجهم كاتباً للحارث بن سريج من زعماء خراسان ، وظهرت بدعة الجهم أول ما ظهرت (بترمد) ، وقتله سالم بن أحوز المارني ، (بمرور) سنة ١٢٨ هـ في آخر ملك بني أمية .

وكان مذهب الجهم موافقاً لمذهب المعتزلة في نفي الصفات الأزلية ، وكان يقول ” بالجزر ، وفناء النار والجنة ، وعدم جواز اتصاف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه “ .

يقول ابن حزم في الفصل ٢٠٤/٤

” فمن فضائح الجهمية وشنعهم ، قولهم بأن علم الله محدث مخلوق ، وأنه تعالى لم يكن يعلم شيئاً حتى أحدث نفسه علماً يعلم به ، وكذلك قولهم في القدرة ، وقولهم أيضاً أن الجنة والنار يفنيان ، ويفنى كل من فيهما ، وهذا خلاف القرآن والثابت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخلاف إجماع أهل الإسلام “ . ١ هـ

وللإمام ابن القيم كتاب نافع في الرد على هذه النحلة وأشباهاها ، وهو :

” اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية “ .

(٤) المريسيين هم مرجئة بغداد من أتباع بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي وهو مبتدع ضال ، تفقه أول أمره على قاضي القضاة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، ثم أتقن علم الكلام وابتدع بدعاً شنيعة ، فجرد القول بخلق القرآن ، وأخذ بمقالة جهم بن صفوان .

(٥) النحل ١١١

(٦) النحل : بكسر النون وفتح الحاء ، جمع نِحْلَة وهي الطريقة أو المذهب .

ودخولهم في أبواب لم يأذن الله لهم بدخولها ، ومحاولتهم لعلم شيء استأثر^(٧) الله بعلمه ، حتى تفرقوا فرقا ، وتشعبوا شعبا وصاروا أحزابا ، وكانوا في البداية ومحاولة الوصول إلى ما يتصورونه من العامة مختلفى المقاصد ، متباينى المطالب فطائفة وهى أخف هذه الطوائف — المتكلفة علم ما لم يكلفها الله سبحانه بعلمه — إنما ، وأقلها عقوبة وجرما^(٨) وهى التى أرادت الوصول إلى الحق ، والوقوف على الصواب ، لكن سلكت فيه طريقة متوعرة ، وصعدت فى الكشف عنه إلى عقبة كؤود^(٩) لا يرجع من سلكها فضلا عن أن يظفر^(١٠) فيها بمطلوب صحيح ، ومع هذا أصلوا أصولا ظنوها حقا فدفعوا بها آيات قرآنية ، وأحاديث صحيحة نبوية ، واعتلوا فى ذلك الدفع بشبه واهية وخيالات مختلة وهؤلاء هم طائفتان :

١ — (الطائفة الأولى) : هى الطائفة التى غلت فى التنزيه فوصلت إلى حد يقشعر عنده الجلد ، ويضطرب له القلب ، من تعطيل الصفات الثابتة بالكتاب والسنة ثبوتا أوضح من شمس النهار ، وأظهر من فلق الصباح ، وظنوا هذا من صنيعهم موافقا للحق ، مطابقا لما يريد الله سبحانه ، فضلوا الطريق المستقيم ، وأضلوا من رام^(١١) سلوكها .

٢ — (والطائفة الأخرى) : هى الطائفة التى غلت فى إثبات القدرة غلواً بلغ إلى حد أنه لا تأثير لغيرها ، ولا اعتبار بما سواها ، وأفضى ذلك إلى الجبر^(١٢) المحض ، والقسر^(١٣) الخالص فلم يبق لبعث الرسل وإنزال الكتب كثير فائدة ، ولا يعود ذلك على عباده بعائده ، وجاءوا بتأويلات للآيات البينات ،

(٧) الاستئثار : الانفراد بالشئ وعدم الإشارك فيه .

(٨) الجرم = الذنب والإساءة

(٩) يقال عقبة كؤود أو كأداء ، أى شاقة المصعد ، صعبة المرتقى .

(١٠) ظفر بالشئ ، ناله وحصل عليه .

(١١) رام الشئ أرادته وطلبه .

(١٢) الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى ، فيقولون أن الإنسان لا فعل له ولا قدرة .

(١٣) القسر : الإكراه والقهر .

ومما حلات^(١٤) لحجج الله الواضحات فكانوا كالتوائفة الأولى فى الضلال والإضلال ، مع أن كلا المقصدين صحيح ، ووجه كل منهما صبيح ، لولا ما شأنه من الغلو القبيح ، وطائفة توسطت ورامت الجمع بين الضب والنون^(١٥) ، وظنت أنها وقفت بمكان بين الإفراط والتفريط ، ثم أخذت كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث تجادل وتناضل وتحقق وتدقق فى زعمها ، وتجول على الأخرى وتصول^(١٦) بما ظفرت به مما يوافق ما ذهبت إليه و (كل حزب بما لديهم فرحون)^(١٧) وعند الله تلتقى الخصوم ، ومع هذا فهم متفقون فيما بينهم على أن طريق السلف أسلم ، ولكن زعموا أن طريق الخلف أعلم^(١٨) ، فكان غاية ما ظفروا به من هذه الأعلمية لطريق الخلف ، أن تمنى محققوهم وأذكيأؤهم فى آخر أمرهم دين العجائز وقالوا : هنيئا للعامة .

فتدبر هذه الأعلمية التى حاصلها أن يهني من ظفر بها لأهل الجهل البسيط ويتمنى أنه فى عدادهم ، وممن يدين بدينهم ، ويمشى على طريقهم ، فإن هذا ينادى بأعلى صوت ويدل بأوضح دلالة على أن هذه الأعلمية التى طلبوها — الجهل خير منها بكثير ، فما ظنك بعلم يقر صاحبه على نفسه أن الجهل خير منه ، وينتهى عند البلوغ إلى غايته ، والوصول إلى نهايته ، أن يكون جاهلا به عاطلا عنه ، ففى هذا عبرة للمعتبرين ، وآية بينة للناظرين ، فهلا عملوا على جهل هذه المعارف التى دخلوا فيها بادئ بدء ، وسلموا من تبعاتها^(١٩) وأراحوا أنفسهم من تعبها ، وقالوا كما قال القائل :

أرى الأمر يُفضى إلى آخر
يُصير آخره أولاً

(١٤) الماحلات : التكالفات ، يقال مَحَل فلان : أى تكلف له .

(١٥) يقال ” رام الجمع بين الضب والنون “ ذلك لما بين الضب والنون — وهو الحوت — من العداوة .

(١٦) جال يجول ، وصال يصول ، بمعنى كر ووثب .

(١٧) الروم ٣٢

(١٨) لبتهم اتبعوا مذهب السلف ، لكان أسلم لهم ، ولأراحوا واستراحوا ، وكان وسعهم ما وسع غيرهم .

(١٩) التبعات جمع تبة ، وهى ما يلحق الإنسان من ضرر .

وربجوا الخلوص من هذا التمنى ، والسلامة من هذه التهنئة للعامة فإن العاقل لا يتمنى رتبة مثل رتبته أو دونها ، ولا يهني لمن هو دونه أو مثله ، ولا يكون ذلك إلا لمن رتبته أرفع من رتبته ، ومكانه أعلى من مكانه

فيا لله العجب من علم يكون الجهل البسيط أعلى رتبة منه ، وأفضل مقداراً منه بالنسبة إليه ، وهل سمع السامعون مثل هذه الغريبة ؟ أو نقل الناقلون ما يماثلها أو يشابهها ؟ وإذا كان حال هذه الطوائف التي قد عرفناك أخف هذه الطوائف تكلفاً وأقلها تبعاً ، فما ظنك بما عداها من الطوائف التي قد ظهر فساد مقاصدها ؟ وتبين بطلان مواردها ومصادرها ؟ كالطوائف التي أرادت بالمظاهر التي تظاهرت به ، إكبار الإسلام وأهله والسعي في التشكيك فيه ، بإيراد الشبه ، وتقرير الأمور المفضية إلى القبح في الدين ، وتنفير أهله عنه ، وعند هذا تعلم أن :

خَيْرُ الْأُمُورِ السَّالِفَاتُ عَلَى الْهُدَى وَشَرُّ الْأُمُورِ الْمُحَدَّثَاتُ الْبِدَائِعُ

وأن الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة ، هو ما كان عليه « خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » وقد كانوا (رحمهم الله) وأرشدنا إلى الاقتداء بهم ، والاهتداء بهديهم ، يرون أدلة الصفات على ظاهرها ولا يتكلفون علم ما لا يعلمون ولا يتأولون وهذا المعلوم من أقوالهم وأفعالهم ، والمتقرر من مذاهبهم لا يشك فيه شك ، ولا ينكره منكر ، ولا يجادل فيه مجادل ، وإن نزع بينهم نازع أو نجم في عصرهم ناجم^(٢٠) أوضحوا للناس أمره ، وبينوا لهم أنه على ضلالة وصرحوا بذلك في الجامع والمحافل ، وحذروا الناس من بدعته ، كما كان منهم لما ظهر معبد الجهني^(٢١) وأصحابه ، وقالوا أن الأمر أنف^(٢٢) وبينوا ضلالته وبطلان مقاله للناس ، فحذروه إلا من ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

(٢٠) النازع : الغريب ، والناجم : ما ظهر ووضح .

(٢١) هو معبد بن خالد الجهني البصري ، أول من تكلم في القدر ، واختلف في موته ، ف قيل صلبه عبد

الملك بن مروان ، وقيل خرج مع ابن الأشعث فأخذه الحجاج فعذبه ثم قتله ، وقيل مات سنة ٨٠ هـ .

(٢٢) إنما الأمر أنف ، أي يُستأنف استئنافاً من غير أن يسبق به قضاء وتقدير وإنما هو على اختيارك ودخولك

فيه .

وهكذا كان مَنْ بَعَدَهُمْ يوضح للناس بطلان أقوال أهل الضلال ، ويحذرهم منها كما فعله التابعون (رحمهم الله) بالجعد بن درهم^(٢٣) ومن قال بقوله وانتحل نحلته الباطلة ثم ما زالوا هكذا لا يستطيع المبتدع في الصفات أن يتظاهر ببدعته بل يكتمونها كما تتكتم الزنادقة بكفرهم ، وهكذا سائر المبتدعين في الدين على اختلاف البدع ، وتفاوت المقالات الباطلة ، ولكننا نقتصر ههنا على الكلام في هذه المسألة التي ورد السؤال عنها وهي مسألة الصفات وما كان من المتكلمين فيها بغير الحق المتكلف علم ما لم يأذن الله بأن يعلموه ، وبيان أن إمرار أدلة الصفات على ظاهرها هو مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وأن كل من أراد من نزاع^(٢٤) المتكلفين ، وشذاذ المحدثين والمتأولين ، أن يظهر ما يخالف المرور على ذلك الظاهر ، قاموا عليه وحذروا الناس منه ، وبينوا لهم أنه على خلاف ما عليه أهل الإسلام ، وسائر المبتدعين في الصفات ، القائلون بأقوال تخالف ما عليه السواد الأعظم من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، في خبايا وزوايا لا يتصل بهم إلا مغرور ، ولا ينخدع بزخارف أقوالهم إلا مخدوع ، وهم مع ذلك على تخوف من أهل الإسلام ، وترقب لنزول مكروه بهم من حماة الدين ، من العلماء الهادين ، والرؤساء والسلاطين ، حتى نجم ناجم المحنة ، وبرق بارق الشر من جهة العباسية ومن لهم في الأمر والنهي والإصدار والإيراد أعظم صولة ، وذلك في الدولة بسبب قاضيها أحمد بن أبي داود^(٢٥) فعند ذلك أطلع المنكسون في تلك الزوايا رؤوسهم . وانطلق ما كان قد خرس من ألسنتهم ،

(٢٣) هو الجعد بن درهم ، مؤدب مروان بن محمد آخر ولاية بني أمية ، وكان ينسب إليه فيقال " مروان بن الجعد " ، ويقال أنه أول من تكلم في خلق القرآن ، وأخذه خالد بن عبد الله القسري فذبحه يوم عيد الأضحى .

(٢٤) نزاع جمع نازع وهو الغريب .

(٢٥) هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادي ، قاضي معزلي ، ولد بالبصرة حوالي عام ١٦٠ هـ ، واستطاع أن يصل إلى مكانة كبيرة في عهد « المأمون » ، ولم يلبث أن أصبح من أخلص أصدقاء هذا الخليفة ، واستمر على مكانته لدى المعتصم بعد المأمون ، وهو الذي تولى كبر محنة الإمام « أحمد بن حنبل » . وأصابه الفالج في أيام المتوكل ، ومات مخزياً عام ٢٤٠ هـ بعد موت ابنه محمد ، وكانت له موهبة في قول الشعر .

وأعلنوا بمذاهبهم الزائفة وبدعهم المضلة . ودعوا الناس إليها وجادلوا عنها . وناضلوا المخالفين لها حتى اختلط المعروف بالمنكر واشتبه على العامة الحق بالباطل . والسنة بالبدعة^(٢٦) .

ولما كان الله سبحانه قد تكفل بإظهار دينه على الدين كله وبحفظه عن التحريف والتغيير والتبديل أوجد من علماء الكتاب والسنة في كل عصر من العصور من يبين للناس دينهم ، وينكر على أهل البدع بدعهم ، فكان لهم والله الحمد المقامات المحموده ، والمواقف المشهودة ، في نصر الدين ، وهتك المبتدعين .

وبهذا الكلام القليل الذى ذكرنا تعرف أن مذهب السلف من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين وتابعيهم ، هو إيراد أدلة الصفات على ظاهرها من دون تحريف لها ولا تأويل متعسف^(٢٧) لشيء منها ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل يفضى إليه كثير من التأويل وكانوا إذا سأل سائل عن شئ من الصفات تلوا عليه الدليل ، وأمسكوا عن القول والقييل ، وقالوا : قال الله هكذا ولا ندرى بما سوى ذلك ولا نتكلف ولا نتكلم بما لم نعلمه ولا أذن الله لنا بمجاوزته ، فإن أراد السائل أن يظفر منهم بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيما لا يعنيه ونهوه عن طلب ما لا يمكن الوصول إليه إلا بالوقوع فى بدعة من البدع التى هى غير ما هم عليه وما حفظوه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحفظه التابعون عن الصحابة وحفظه من بعد التابعين عن التابعين .

وكان فى هذه القرون الفاضلة الكلمة فى الصفات متحدة والطريقة لهم جميعا متفقة ، وكان اشتغالهم بما أمرهم الله بالاشتغال به وكلفهم القيام بفرائضه من الإيمان بالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام ، والحج ، والجهاد ، وإنفاق الأموال فى أنواع البر ، وطلب العلم النافع ، وإرشاد الناس إلى الخير على اختلاف أنواعه ، والمحافظة

(٢٦) وكان من جراء ذلك محنة "خلق القرآن" التى وقع فيها كثير من علماء الأمة وفى كتاب "الحيدة" رد على هذه الدعوى .

(٢٧) التعسف الأخذ على غير الطريق .

على موجبات الفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، والقيام بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والأخذ على يد الظالم بحسب الاستطاعة وبما تبلغ إليه القدرة ، ولم يشتغلوا بغير ذلك مما لم يكلفهم الله بعلمه ولا تعبدتهم بالوقوف على حقيقته ، فكان الدين إذ ذاك صافيا عن كدر البدع خالصا عن شوب^(٢٨) قدر التمدد ، فعلى هذا التمث^(٢٩) كان الصحابة رضی الله عنهم والتابعون وتابعوهم بهدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اهتدوا ، وبأفعاله وأقواله اقتدوا . فمن قال إنهم تلبسوا بشيء من هذه المذاهب الناشئة في الصفات ، أو في غيرها فقد أعظم عليهم الفرية^(٣٠) وليس بمقبول في ذلك فإن أقوال الأئمة المطلعين على أحوالهم العارفين بها الآخذين لها عن الثقات الأثبات^(٣١) يرد عليه ويدفع في وجهه — يعلم ذلك كل من له علم ، ويعرفه كل عارف ، فاشدد بذلك على هذا ، واعلم أنه مذهب خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ودع عنك ما حدث من تلك التمددات في الصفات ، وأرح نفسك من تلك العبارات التي جاء بها المتكلمون ، واصطلحوا عليها وجعلوها أصلا يرد كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن وافقها فقد وافق الأصول المتقررة في زعمهم ، وإن خالفها فقد خالف الأصول المتقررة في زعمهم ، ويجعلون الموافق لها من قسم المقبول والمحكم ، والمخالف لها من قسم المردود والمتشابه ، ولو جئت بألف آية واضحة الدلالة ظاهرة المعنى أو ألف حديث مما ثبت في الصحيح لم يبالوا به ولا رفعوا إليه رؤسهم ولا عدوه شيئا ومن كان منكرا لهذا فعليه بكتب هذه الطوائف المصنفة في علم الكلام فإنه سيقف على الحقيقة ويسلم هذه الجملة ولا يتردد فيها .

ومن العجب العجيب ، والنبأ الغريب ، أن تلك العبارات الصادرة عن جماعة من أهل الكلام ، التي جعلها من بعدهم أصولا لامستند لها إلا مجرد الدعوى على العقل ،

(٢٨) الشوب : الخلط

(٢٩) التمث : الطريقة

(٣٠) الفرية : الكذب ، وافتراه : اختلقه

(٣١) أثبات : مفردا (ثَبَّتْ) وهو الثابت القلب .

والفرية على الفطرة ، وكل فرد من أفرادها قد تنازعت فيه عقولهم وتخالفت عند إدراكاتهم ، فهذا يقول : حكم العقل في هذا الكلام كذا وهذا يقول حكم العقل في هذا كذا ، ثم يأتي بعدهم من يجعل ذلك الذى يعقله مَنْ تقلده ويقتدى به أصلاً يرجع إليه ومعياراً لكلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم يقبل منهما ما وافقه ويرد ما خالفه . فيالله وبالللمسلمين وبالعلماء الدين من هذه الفواقير^(٣٢) الموحشة التى لم يصب الإسلام وأهله بمثلها .

وأغرب من هذا وأعجب وأشنع وأفظع أنهم بعد أن جعلوا هذه التعقلات التى تعقلوها على اختلافهم فيها وتناقضهم فى معقولاتها أصولاً ترد إليها أدلة الكتاب والسنة جعلوها معياراً لصفات الرب تعالى فيما تعقله هذا من صفات الله قال به جزماً وما تعقله خصمه منها قطع به فأثبتوا لله تعالى الشىء ونقيضه استدلالاً بما حكمت به عقولهم الفاسدة وتناقضت فى شأنه ولم يلتفتوا إلى ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بل إن وجدوا ذلك موافقاً لما تعقلوه جعلوه مؤيداً له ومقويًا ، وقالوا قد ورد دليل السمع مطابقاً للدليل العقل ، وإن وجدوه مخالفًا لما تعقلوه جعلوه وارداً على خلاف الأصل ، ومتشابهًا وغير معقول المعنى ولا ظاهر الدلالة ، ثم قابلهم المخالف لهم بنقيض قولهم فافتروا على عقله بأنه قد تعقل خلاف ما تعقله خصمه ، وجعل ذلك أصلاً يرد إليه أدلة الكتاب والسنة ، وجعل المتشابه عند أولئك محكما عنده ، والمخالف للدليل العقل عندهم موافقا له عنده ، فكان حاصل كلام هؤلاء أنهم يعلمون من صفات الله ما لا يعلمه ، وكفاك هذا وليس بعده شىء . وعنده يتغير القلم حياء من الله سبحانه وتعالى . وربما استبعد هذا مستبعد ، واستنكره مستنكر ، وقال : إن فى كلامى هذا مبالغة وتهويلا ، وتشنيعا وتطويلا ، وإن الأمر أيسر من أن يكون حاصله هذا الحاصل وثمرته مثل هذه الثمرة التى أشرت إليها فأقول : خذ جملة البلوى ودع تفصيلها واسمع ما يصك سمعك . ولولا هذا الإلحاح

(٣٢) فواقير : مفردا فاقرة ، وهي الداهية الشديدة

منك ما سمعته ولا جرى القلم بمثله : هذا أبو علي^(٣٣) وهو رأس من رعو سهم ، وركن من أركانهم ، واسطوانة من اسطواناتهم ، قد حكى عنه الكبار وآخر من حكى عنه ذلك صاحب شرح القلائد [والله لا يعلم من نفسه إلا ما يعلم هو] فخذ هذا التصريح ، حيث لم تكتف بذلك التلويح ، وانظر هذه الجرأة على الله سبحانه وتعالى التي ليس بعدها جرأة . فيالأم أبي علي الويل ، أنهيق مثل هذا النهيق ، ويدخل نفسه في هذا المضيق ؟ وهل سمع السامعون يمين أفجر من هذه اليمين الملعونة ، أو نقل الناقلون كلمة تقارب معنى هذه الكلمة المفتونة ، أو بلغ مفتخر إلى ما بلغ هذا المختال الفخور ، أو وصل من يفخر في إيمانه إلى ما يقارب هذا الفجور ؟ وكل عاقل يعلم أن أحدنا لو حلف أن ابنه أو أباه لا يعلم من نفسه إلا ما يعلمه هو لكان كاذبا في يمينه فاجرا فيها ، لأن كل فرد من الناس ينطوى على صفات وغرائز لا يجب أن يطلع عليها غيره ، ويكره أن يقف على شيء منها سواه ، ومن ذا الذي يدري بما يجول في خاطر غيره ويستكن في ضميره ، ومن ادعى علم ذلك وأنه يعلم من غيره من بنى آدم ما يعلمه ذلك الغير من نفسه ولا يعلم ذلك من نفسه إلا ما يعلمه هذا المدعى ، فهو إما مصاب العقل يهذى بما لا يدري ، ويتكلم بما لا يفهم ، أو كاذب شديد الكذب عظيم الافتراء فإن هذا أمر لا يعلمه غير الله سبحانه وتعالى فهو الذي يحول بين المرء وقلبه ، وما توسوس به نفسه ، وما يسر عباده وما يعلنون وما يظهرون وما يكتمون كما أخبرنا بذلك في كتابه العزيز في غير موضع فقد خاب وخسر من أثبت لنفسه من العلم ما لا يعلمه إلا الله من عباده ، فما ظنك من جاوز هذا وتعداه ، وأقسم بالله سبحانه أن الله لا يعلم من نفسه إلا ما يعلمه هو ، ولا يصح لنا أن نحمله على اختلال العقل ، فلو كان مجنوناً لم يكن رأساً يقتدى بقوله جماعات من أهل عصره ومن جاء بعده وينقلون كلامه في الدفاتر ، ويحكون عنه في مقامات الاختلاف ، ولعل أتباع هذا ومن يقتدى بمذهبه لو قال لهم قائل وأورد عليهم مورد قول الله عز

(٣٣) لعله أبو علي الجبائي ، وهو محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن حمران بن أبان ، الجبائي نسبة

إلى (جُبِّي) بضم المعجمة وفتح الموحدة وتشديدها ، وهي بلد من أعمال خوزستان .

وهو شيخ من شيوخ المعتزلة ، وابنه أبو هاشم من شيوخها أيضاً ، ولقد اتفق لأبي علي من التقدم والرياسة ، ما لم يتفق لغيره من أهل الاعتزال قبله ، إلا لأبي الهذيل العلاف وكانت وفاته ٣٠٣ هـ

وجل ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾^(٣٤) وقوله ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾^(٣٥) وقال لهم : هذا يرد ما قال صاحبكم ويدل على أن يمينه هذه فاجرة مفتراة لقالوا : هذا ونحوه مما يدل دلالاته ويفيد مفاده من التشابه الوارد على خلاف دليل العقل المدفوع بالأصول المقررة

وبالجمللة فإطالة ذيول الكلام في مثل هذا المقام إضاعة للأوقات ، واشتغال بحكاية الخرافات ، المبكيات لا المضحكات وليس مقصودنا ههنا إلا إرشاد السائل إلى أن المذهب الحق في الصفات ، هو إمرارها على ظاهرها من غير تأويل ولا تحريف ولا تكلف ولا تعسف ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل وأن ذلك هو مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم .

فإن قلت : وماذا تريد بالتعطيل في مثل هذه العبارات التي تكررنا فإن أهل المذاهب الإسلامية يتنزهون عن ذلك ويتحاشون عنه ولا نصدق معناه ولا يوجد مدلوله إلا في طائفة من طوائف الكفار وهم المنكرون للصانع . قلت : يا هذا إن كنت ممن له إلمام بعلم الكلام ، الذي اصطلح عليه طوائف من أهل الإسلام ، فإنك لا محالة قد رأيت ما يقوله كثير منهم ويذكرونه في مؤلفاتهم ويحكونه عن أكابرهم : إن الله سبحانه وتعالى تنزهه وتقديسه لا هو جسم ولا هو جوهر ولا عرض ولا داخل العالم ولا خارجه . فأنشدك الله : أى عبارة تبلغ مبلغ هذه العبارة في النفي ؟ وأى مبالغة في الدلالة على هذا النفي تقوم مقام هذه المبالغة ؟ فكأن هؤلاء في فرارهم من شبهة التشبيه إلى هذا التعطيل كما قال القائل :

فَكُنْتُ كَالسَّاعِي إِلَى مِثْعَبٍ مَوَاتِلًا مِنْ سُبُلِ الرَّاعِدِ^(٣٦)

(٣٤) طه ١١٠

(٣٥) البقرة ٢٥٥

(٣٦) المثعب : مسيل الحوض أو السطح الذي يتفجر منه الماء .

المواتل : طلب النجاة

وهذا المثل يضرب لمن يهرب من شيء فيقع في أشر منه .

أو كالمستجير من الرمضاء بالنار ، والهارب من لسعة الزنبور إلى لدغة الحية ، ومن قرصة النحلة إلى قضة الأسد .

وقد يعنى هؤلاء وأمثالهم من المتكلمين المتكفين كلمتان من كتاب الله تعالى وصف بهما نفسه وأنزلهما على رسوله وهما ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾^(٣٧) و ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾^(٣٨) فإن هاتين الكلمتين قد اشتملتا على فصل الخطاب ، وتضمنتا بما يعين أولى الألباب ، السالكين في تلك الشعاب ، فالكلمة منها دلت دلالة بينة على أن كل ما تكلم به البشر في ذات الله وصفاته على وجه التدقيق ، ودعاوى التحقيق ، فهو مشوب بشعبة من شعب الجهل مخلوط بمخلوط هي منافية للعلم ومباينة له ، فإن الله سبحانه قد أخبرنا أنهم لا يحيطون به علما فمن زعم أن ذاته كذا أو صفته كذا فلا شك أن صحة ذلك متوقفة على الإحاطة وقد نفيت عن كل فرد من الأفراد علما .

فكل قول من أقوال المتكلمين صادر على جهل إما من كل وجه أو من بعض الوجوه ، وما صدر عن جهل فهو مضاف إلى جهل ، ولاسيما إذا كان في ذات الله وصفاته فإن ذلك من المخاطرة في الدين ما لم يكن في غيره من المسائل ، وهذا يعلمه كل ذى علم ويعرفه كل عارف ، ولم يحط بفائدة هذه الآية ويقف عندها ويقتطف من ثمراتها إلا الممرنون الصفات على ظاهرها المريحون أنفسهم من التكاليف والتعسفات والتأويلات والتحريفات ، وهم السلف الصالح كما عرفت ، فهم الذين اعترفوا بالإحاطة ، وأوقفوا أنفسهم حيث أوقفها الله وقالوا : الله أعلم بكيفية ذاته ، وما هية صفاته ، بل العلم كله له ، وقالوا كلما قال من قال ، فمن اشتغل بطلب هذا المحال فلم يظفر بغير القيل والقال .

العلم للرحمن جَلَّ جَلَّالُهُ وَسِوَاهُ فِي جَهَلَاتِهِ يَتَّعَمُّمُ^(٣٩)
مَا لِلتَّرَابِ وَلِلْعُلُومِ وَإِنَّمَا يَسْعَى لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ

(٣٧) طه ١١٠

(٣٨) الشورى ١١

(٣٩) يتغمم : يتكلم بكلام لا يفهم ولا يُبَيِّن .

بل اعترف كثير من هؤلاء المتكلفين بأنه لم يستفد من تكلفه وعدم قنوعه بما قنع به السلف الصالح ، إلا مجرد الحيرة التي وجد عليها غيره من المتكلفين فقال :

[لَقَدْ طُفْتُ فِي تِلْكَ الْمَعَاهِدِ كُلِّهَا] وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ^(٤٠)
فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَى ذَقْنٍ ، أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمٍ^(٤١)

وها أنا أخبرك عن نفسي ، وأوضح لك ما وقعت فيه في أمسى ، فإني في أيام الطلب وعنقوان^(٤٢) الشباب شغلت بهذا العلم الذي سموه تارة علم الكلام ، وتارة علم التوحيد ، وتارة علم أصول الدين ، وأكبت على مؤلفات الطوائف المختلفة منهم ورمت الرجوع بفائدة ، والعود بعائدة ، فلم أظفر من ذلك بغير الخيبة والحيرة ، وكان ذلك من الأسباب التي حببت إلى مذهب السلف ، على أنني كنت قبل ذلك عليه ولكن أردت أن أزداد منه بصيرة وبه شغفا ، وقلت عند ذلك في تلك المذاهب :

وِغَايَةُ مَا حَصَلَتْهُ مِنْ مَبَاحِثِي وَمِنْ نَظَرِي مِنْ بَعْدِ طَوْلِ التَّدْبِيرِ
هُوَ الْوَقْفُ مَا بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ حَيْرَةٌ فَمَا عَلِمَ مِنْ لَمْ يَلِقْ غَيْرَ التَّحْيِيرِ
عَلَى أَنْيْ قَدْ خَضْتُ مِنْهُ غِمَارَهُ^(٤٣) وَمَا قَنَعْتُ نَفْسِي بِغَيْرِ التَّبْحِيرِ

وأما الكلمة وهي (ليس كمثله شيء)^(٤٤) فيها يستفاد نفى المماثلة في كل شيء ،

فيدفع بهذه الآية في وجه المجسمة وتعرف به الكلام عند وصفه سبحانه بالسميع البصير وعند ذكر السمع والبصر واليد والاستواء ونحو ذلك مما اشتمل عليه الكتاب

(٤٠) سيرت طرفي : أجلت أو حركت نظري .

(٤١) قرع سن الندم : يضرب لمن يندم على شيء فاتته .

وجاء في هامش " درء تعارض العقل والنقل " ت د . محمد رشاد سالم ، رد على اليتيم لمحمد بن

إسماعيل الأمير ..هما .:

الرسول ومن لاقاه من كل عالم
ولست تراه قارعاً سن نادم

لعلك أهملت الطواف . بمعهد

فما حار من يهدى بهدي محمد

(٤٢) عنقوان الشباب : بدايته وقوته

(٤٣) غماره : أي ما صعب منه

(٤٤) ، (٤٥) الشورى ١١

والسنة فتقرر بذلك الإثبات لتلك الصفات لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات ، فيدفع به جانبي الإفراط والتفريط ، وهما المبالغة في الإثبات المفضية الى التجسيم والمبالغة في النفي المفضية الى التعطيل ، فيخرج من بين الجانبين ، وغلو الطرفين ، حَقِيَّةَ مذهب السلف الصالح وهو قولهم بإثبات ما أثبتته لنفسه من الصفات على وجه لا يعلمه إلا هو فإنه القائل ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾^(٤٥)

ومن جملة الصفات التي أمرها السلف على ظاهرها ، وأجروها على ما جاء به القرآن والسنة من دون تكلف ولا تأويل — صفة الاستواء التي ذكرها السائل ، يقولون نحن نثبت ما أثبتته الله لنفسه من استوائه على عرشه على هيئة لا يعلمها إلا هو وكيفية لا يدري بها سواه ، ولا نكلف أنفسنا غير هذا فليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا تحيط عباده به علما . وهكذا يقولون في مسألة الجهة التي ذكرها السائل وأشار إلى بعض ما فيه دليل عليها ، والأدلة في ذلك طويلة كثيرة في الكتاب والسنة ، وقد جمع أهل العلم منها — لا سيما أهل الحديث — مباحث طولوها بذكر آيات قرآنية ، وأحاديث صحيحة ، وقد وقفت من ذلك على مؤلف بسيط في مجلد جمعه مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي^(٤٦) رحمه الله استوفى فيه كل ما فيه دلالة على الجهة من كتاب أو سنة أو قول صاحب .

والمسألة أوضح من أن تلتبس على عارف ، وأبين من أن يحتاج فيها إلى التطويل ، ولكنها لما وقعت فيها تلك القلاقل والزلازل الكائنة بين بعض الطوائف الإسلامية كثر الكلام فيها وفي مسألة الاستواء وطال سيما بين الحنابلة وغيرهم من أهل المذاهب فلهم في ذلك الفتن الكبرى ، والملاحم^(٤٧) العظمى ، وما زالوا هكذا في عصر بعد عصر والحق هو ما عرفناك من مذهب السلف الصالح ، فالاستواء على العرش والكون

(٤٦) هو الحافظ الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله الذهبي ، من أصل تركي ، ولد بدمشق ٦٧٣ هـ ، ونشأ بها وطلب العلم ، وتردد على الشيوخ ورحل إليهم ، وحاز كثيراً من العلوم وبرز في الحديث وعلومه ، والتاريخ وفنونه ، وتوفي بدمشق سنة ٧٤٨ هـ والكتاب المقصود "العلو للعلي الغفار" وقد طبع مراراً ، واختصره الألباني .

(٤٧) الملاحم : جمع ملحمة وهي الوقعة العظيمة

في تلك الجهة قد صرح به القرآن الكريم في مواطن يكثر حصرها ويطول نشرها كذلك صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غير حديث ، بل هذا مما يجده كل فرد من أفراد الناس في نفسه ويحسه في فطرته وتجذبه إليه طبيعته كما تراه في كل من استغاث بالله سبحانه وتعالى والتجأ إليه ووجه أدعيته إلى جنبه الرفيع ، وعزه المنيع ، فإنه يشير عند ذلك بكفه ، أو يرمى إلى السماء بطرفه ، ويستوى في ذلك عند عروض أسباب الدعاء وحدث بواعث الاستغاثة ، ووجود مقتضيات الإزعاج ، وظهور دواعي الالتجاء — عالم الناس وجاهلهم . والمأشى على طريقة السلف . والمقتدى بأهل التأويل القائلين بأن الاستواء هو الاستيلاء^(٤٨) كما قال جمهور المتأولين والأقيال^(٤٩) كما قاله أحمد بن يحيى ثعلب^(٥٠) والزجاج^(٥١) والفراء^(٥٢) وغيرهم ، أو كناية عن الملك والسلطان كما قاله آخرون .

فالسلامة والنجاة في إمرار ذلك على الظاهر والإذعان بأن الاستواء والكون على ما نطق به الكتاب والسنة من دون تكييف ولا تكلف ولا قيل ولا قال ، ولا قصور في شيء من المقال ، فمن جاوز هذا المقدار بإفراط أو تفريط فهو غير مقتد بالسلف ، ولا واقف في طريق النجاة ، ولا معتصم عن الخطأ ، ولا سالك في طريق السلامة والاستقامة ، وكما نقول هكذا في الاستواء والكون في تلك الجهة فكذا نقول في مثل قوله سبحانه ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْمًا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾^(٥٣) — وقوله —

(٤٨) هذا قول متأولي المعتزلة ، وقد استندوا إلى بيت مزعوم ، قالوا أنه ينتسب إلى الأخطل النصراني ،
قد استوى بشر على العراق
من غير سيف ودم مهران

(٤٩) الأقيال : جمع قِيل بفتح القاف وسكون المشاة التحتية ، وهو الرئيس أو الملك .
(٥٠) هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني ، المعروف بثعلب ، إمام الكوفيين في النحو واللفظ والحديث ، ولد سنة ٢٠٠ هـ ومات ٢٩١ هـ ، في خلافة " المكتفي " .
(٥١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج ، سمي بذلك ، لأنه كان في شيبته يخرط الزجاج ، وهو أشهر تلامذة المبرد ، كان أماً في النحو والعربية ، مات سنة ٣١١ هـ وقيل ٣١٦ هـ .
(٥٢) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الباهلي الفراء ، فارسي الأصل ، وكان أشهر تلامذة الكسائي ، وعليه برع في النحو ومن أشهر مؤلفاته " معني القرآن " مات سنة ٢٠٧ هـ .
(٥٣) الحديد ٤

﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾^(٥٤) —
 وفي نحو — ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾^(٥٥) — ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ
 مُحْسِنُونَ ﴾^(٥٦) إلى ما يشابه ذلك ويمثله ويقاربه ويضارعه ، فنقول في مثل هذه
 الآيات : هكذا جاء القرآن إن الله سبحانه مع هؤلاء ولا نتكلف تأويل ذلك كما
 يتكلف غيرنا بأن المراد بهذا الكون وهذه المعية هو كون العلم ومعيته ، فإن هذا
 شعبة من شعب التأويل تخالف مذاهب السلف وتباين ما كان عليه الصحابة والتابعون
 وتابعوهم^(*) ، وإذا انتهت إلى السلامة في مداك فلا تجاوزه .

وهذا الحق ليس به خفاء فدعنى من بنيات الطريق^(٥٧)

وقد هلك المنتطعون ولا يهلك على الله إلا هالك وعلى نفسها براقش^(٥٨) تجنى وفي
 هذه الجملة وإن كانت قليلة ما يغنى من شح بدينه وتحرص عليه عن تطويل المقال
 وتكثير ذيوله ، وتوسيع دائرة فروعه وأصوله ، والهداية من الله ، والله أعلم .
 (انتهت الرسالة والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله الأمين)

(٥٤) المجادلة ٧

(٥٥) البقرة ١٥٣ ، الأنفال ٤٦

(٥٦) النحل ١٢٨

(*) هذا الذي قاله الشوكاني رحمه الله فيه نظريين بل الصواب إثبات ما نفاه ونفى ما أثبتته إذ هو اعتقاد
 السلف . وكتاب « العلو للعلو الغفار » للحافظ الذهبي الذي نوه به الشوكاني في كتابه هذا (راجع
 هامش ٤٦) طافح بإثبات ما نفاه عن سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان من علماء
 الأمة القدماء بل فيه نص أبي عمر بن عبد البر بالإجماع على ذلك حيث يقول « أجمع علماء الصحابة
 والتابعين الذين حُمل عنهم التأويل . قالوا في تأويل قوله تعالى ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ
 رَابِعُهُمْ ﴾ : هو على العرش ، وعلمه في كل مكان . وما خالفهم في ذلك أحد يحتاج بقوله « أ هـ .
 من مختصر العلو للألباني ص ٢٦٨ وفيه إنكار الألباني على الإمام الشوكاني مخالفته في هذا الموضوع
 لسلف الأمة والذي ختمه بقوله « فلا تغتر إذن بما زعمه الشوكاني من المخالفة فإن لكل عالم زلة ولكل
 جواد كبوة . » أ هـ .

(٥٧) بنيات الطريق : هي الطرق الصغيرة المتشعبة من جادة الطريق .

(٥٨) براقش كلبة لقبيلة جاهلية ، سمعت وقع حوافر دواب ، فنبحت ، فاستبل الغزاة على مكان القبيلة
 فاستباحوها ، وهو مثل يضرب لمن يعمل عملاً يعود عليه بالضرر .

ثبت المراجع

- ١ - القرآن الكريم
 - ٢ - الفصل في الملل والأهواء والنحل
 - ٣ - الملل والنحل
 - ٤ - درء تعارض العقل والنقل
 - ٥ - الفرق بين الفرق
 - ٦ - اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية
 - ٧ - نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار
 - ٨ - الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة
 - ٩ - أدب الطلب ومنتهى الأرب
 - ١٠ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
 - ١١ - حياة الحيوان الكبرى
 - ١٢ - لسان العرب
 - ١٣ - القاموس المحيط
 - ١٤ - المصباح المنير
 - ١٥ - دائرة المعارف الإسلامية
 - ١٦ - مناقب الإمام أحمد
 - ١٧ - تاريخ الأدب العربي
 - ١٨ - ديوان النابغة
 - ١٩ - مجالس ثعلب
 - ٢٠ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري
 - ٢١ - صحيح مسلم
- لا بن حزم الأندلسي الظاهري
 لأبي الفتح الشهرستاني
 لشيخ الإسلام ابن تيمية
 لعبد القاهر البغدادي
 لابن قيم الجوزية
 للشوكاني
 للشوكاني
 للشوكاني
 محمد فؤاد عبد الباقي
 للدميري
 لابن منظور
 للفيروز آبادي
 للفيومي
 مجموعة
 لأبي الفرج بن الجوزي
 كارل بروكلمان
 أحمد بن يحيى ثعلب
 ابن حجر العسقلاني

الفهرس

الصفحة	اسم الموضوع
٣	مقدمة الناشر
٤	مقدمة المحقق
٨	ترجمة المؤلف
٩	مؤلفاته
١٣	بداية الرسالة
١٥	طائفتان في الأسماء والصفات
١٧	ماعليه خير القرون
١٨	المبتدع لا يتظاهر ببدعته
١٨	متى تظهر البدعة
١٩	وجود العلماء وأهل السنة في كل عصر لإظهار الدين
١٩	بما كان شغل القرون الفاضلة
٢٢	ترجمة أبو على الجبائي
٢٣	اطالة الكلام في هذا المقام
٢٣	معنى التعطيل
٢٥	الخوض في علم الكلام
٢٦	ترجمة الحافظ الذهبي
٢٧	ترجمة أحمد الشيباني - وأبو إسحاق الزجاج
٢٨	كلام للإمام الشوكاني فيه نظر ، والتعليق عليه
٢٩	ثبت المراجع
٣١	الفهرس
٣٢	صدر حديثاً

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٧١١ / ١٩٨٩

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت . ٣٤١٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠٠٠

تلكس : DWFA UN ٢٤٠٠٤